مجلة الباحث
موقع المجلة: https://journals.uokerbala.edu.iq/index.php/bjh/

التكامل المعرفي بين البلاغة العباسية وعلوم التفسير: دراسة تطبيقية في شعر المتنبي

اسم المؤلف / كوثر علي خضر علي

جهة انتساب الكاتب / المديرية العامة للتربية في محافظة بابل

التخصص العام للبحث: الأدب	التخصص الدقيق للبحث: الأدب العباسي

معلومات الورقة البحثية

الكلمات الرئيسية:

التكامل المعرفي، البلاغة العباسية، علوم التفسير، المتنبي، المجاز والتأويل

المستخلص باللغة العربية:

شهد العصر العباسي تحولاً جذرياً في العلاقة بين البلاغة وعلوم التفسير، إذ انتقلت البلاغة من دراسة جماليات اللفظ إلى تحليل التركيبة الدلالية والقصدية، فتأثرت بحركة الترجمة والتفاعل مع الفلسفة اليونانية، وفي المقابل تطورت المناهج التفسيرية لتضم المأثور والعقلي والإشاري، الأمر الذي أتاح حواراً ثرياً بين المنظومتين. تهدف الدراسة إلى الكشف عن أسس التكامل المعرفي بين البلاغة العباسية وعلوم التفسير، وتحليل مظاهر هذا التكامل في شعر المتنبي كنموذج إبداعي، وبيان أوجه التوافق والاختلاف بين المنهجين البلاغي والتفسيري، وإبراز البعد الجمالي والفلسفي في توظيف المتنبي للمفاهيم القرآنية. وقد اعتمد البحث المنهج التاريخي لتتبع تطور العلاقة بين البلاغة والتفسير، والمنهج التحليلي لدراسة أبيات المتنبي، والمنهج الوصفي والنقدي. كشفت هذه الدراسة أن شعر المتنبي يمثل نموذجاً واضحاً للتكامل المعرفي، حيث استلهم المناهج التفسيرية كالتأويل والمجاز ممّا أضفى على شعره عمقاً دلالياً. كما أظهر البحث تشابكاً بين منهج البلاغة ورؤية التفسير في توظيف الرموز الدينية والتاريخية، وأن هذا التكامل يعد مدخلاً فعالاً لاكتشاف طبقات دلالية جديدة في النصوص الأدبية.

doi: https://doi.org/10.63797/bjh.

التكامل المعرفي بين البلاغة العباسية وعلوم التفسير: دراسة تطبيقية في شعر المتنبي

المقدمة:

خلال مدة حكم العباسيين، في ظل الانفتاح الثقافي الواسع وتداخل الأجناس المعرفية الذي شهده ذلك العصر، تشكّل حوار فريد بين البلاغة وعلوم التفسير، إذ ازدهرت الحركة العلمية وبرز العلماء في شتى المجالات، مما شكل ذروة النهضة الحضارية والفكرية في تاريخ المسلمين، وقد تمثّل في انتقال اللغة من أداة توصيل، إلى فضاء رحب للتأمل الفلسفي والتحليل العقلي، لقد شهدت البلاغة نقلة نوعية من التركيز على جماليات اللفظ إلى الاهتمام بالبنى الدلالية والمقاصدية، متأثرة بحركة الترجمة والتفاعل مع الثقافات الأخرى، فيما تطوّرت العلوم التفسيرية لتضم المناهج المتعددة من التفسير العقلي إلى الإشاري وإلى التفسير من خلال المأثور، وقد تجسدت العلاقة العضوية بين البلاغة العربية والتفسير القرآني بشكل واضح في منهج الشريف المرتضى في كتابه "الأمالي"، الذي اعتمد

في تفسير الآيات القرآنية على ما جاءت به العرب من أشعار قديمة، مؤكداً أن أغلب تفاسير القرآن الكريم تقوم على أمرين أساسيين: إما أن يكون التفسير بلاغياً قائماً على تحليل الأساليب البيانية، أو أن يستند التفسير على اللغة واستعمالاتها في التراث العربي.، وفي هذا الإطار الحضاري الثري، يبرز شعر الشاعر الحكيم أحمد بن الحسين بن الحسن، أبو الطيب المتنبي كحلقة وصل بين هذين العالمين، حيث يعد المتنبي أحد أدباء الأدب العربي، وله ديوان مشروح وقد قام الصاحب بن عباد بجمع كل حكمه وأمثاله. (البغدادي، 2002: 102) (ابن خلكان، 1994: 36/1) لقد نجح المتنبي في توظيف المفاهيم القرآنية والرموز الدينية في تكوين رؤيته المتفردة بالشعر، منتقلاً بالنصوص المقدسة إلى مادة إبداعية تفيض بالدلالات الجمالية والفلسفية، لقد مثّل المتنبي في شعره نموذجاً فريداً للشاعر المفكّر الذي استطاع أن يدمج بين العمق البلاغي والرؤية التفسيرية، فجاءت قصائده مرآة تعكس ذلك التكامل المعرفي بين المنظومة الجمالية والمنظومة الدينية، ففي تعامله مع القصص القرآني، لم يكتفِ باستحضار الشخصيات التاريخية كفرعون وموسى عليه السلام، بل حوّلها إلى رموز وجودية تحمل دلالات فلسفية عميقة، كما استلهم الآيات القرآنية لبناء صوره الشعرية المبتكرة، معيداً تشكيلها في قوالب فنية تتناسب مع رؤيته للعالم، ولم يقف تأثره بالخطاب القرآني عند مستوى الظاهر، وإنما تجاوزه إلى التأويل الباطن، وفي المقابل نجد أن المفسرين في العصر العباسي قد استفادوا من الأدوات البلاغية في تحليلهم للنص القرآني، مما خلق تبادلاً مثمراً بين المنهجين، لقد ظهر هذا التكامل جلياً في تفسير الآيات المتشابهات، إذ اعتمد المفسرون على التحليل البلاغي لفهم دلالات الألفاظ وتراكيب الجمل، ويبقى شعر المتنبي خير شاهد على هذا التفاعل الخلاّق، إذ نجح في الجمع بين جماليات اللغة وعمق الرؤية، وبين الظاهر والباطن، وبين الحرف والمعنى، مما يجعل دراسته من خلال المنهجين معاً مدخلاً لفهم أعمق لأسرار الإبداع في التراث العربي الإسلامي.

أهمية البحث:

تتجسد أهمية المقالة من أنها تكشف عن التفاعل الحيوي بين نظامين معرفيين رئيسين في التراث العربي الإسلامي، إذ تقدم نموذجاً تطبيقياً للتفاعل بين البلاغة والتفسير خلال حكم العباسيين، مع الإضاءة على شعر المتنبي كحالة دراسة غنية بالدلالات، وتكمن الأهمية في كشف الآليات التي تحوّل بها النص القرآني من مرجعية دينية إلى مادة إبداعية، وكيفية استثمار الأدوات البلاغية في خدمة الفهم التفسيري، مما يفتح آفاقاً جديدة في دراسة العلاقة بين الأدب والدين في التراث العربي، كما يكتسب البحث أهميته من كونه يسهم في سد ثغرة في الدراسات المعاصرة التي غالباً ما تدرس البلاغة والتفسير بمعزل عن بعضهما.

أهداف البحث:

تهدف الدراسة لتحقيق مجموعة من الغايات المركزية، يأتي في مقدمتها الإضاءة على أسس المعرفة التي ارتكز عليها هذا التكامل بين البلاغة والتفسير خلال حكم العباسيين، وتحليل مظاهر هذا التكامل في شعر المتنبي بوصفه نموذجاً إبداعياً فريداً، فالمتنبي لم يكن مفسرا للقرآن وما جاء به من المعاني وقصة القرآن ما هو إلا تضمين أو هو تناص لتقوية ما يُريد الوصول إليه من المعاني، كما يسعى البحث إلى تحديد أوجه الاتفاق والاختلاف بين المنهج البلاغي والمنهج التفسيري بتحليل الأبيات الشعرية، وتبيان طرق الكامل المنهجي بينهما، ومن الأهداف المهمة أيضاً إبراز البعد الجمالي والفلسفي في توظيف المتبني للمفاهيم القرآنية والرموز الدينية، وتقييم مدى توافق هذا التوظيف مع الضوابط الشرعية.

إشكالية البحث:

تكمن مشكلة البحث من أن الدراسات السابقة تبنت شعر المتنبي من زوايا مختلفة منها بلاغية أو نقدية مجردة، دون ربطها بعلوم التفسير والمنظومة الإسلامية، وهل كان ذلك مبرراً في عدم إيراد الجوانب الدلالية والتأويلية في شعره.

السؤال الرئيسي:

كيف تجسد التكامل المعرفي بين منظومتي البلاغة والتفسير في شعر المتنبي، وما حدود هذا التكامل وآلياته؟

الأسئلة الفرعية:

1. ما مظاهر التأثر البلاغي بالتفسير وبالعكس في العصر العباسي؟
2. كيف تعامل المتنبي مع الآيات القرآنية لتشكيل صوره الشعرية؟
3. ما هي أوجه التوافق والتباين بين آليات التأويل البلاغي والتأويل التفسيري في تحليل شعر المتنبي؟
4. ما ضوابط التكامل المنهجي بين البلاغة والتفسير في دراسة النص الأدبي؟
5. كيف يمكن توظيف المنهجين معاً بتحليل النماذج الشعرية للمتنبي؟

منهج البحث:

يستند البحث إلى منهج يتسم بالتكامل الجامع بين مناهج متعددة تكمل بعضها، إذ يتم توظيف المنهج التاريخي في معرفة تطور العلاقة بين البلاغة والتفسير إبّان حكم العباسيين، والمنهج التحليلي في دراسة أبيات الشعرية للمتنبي وكشف طبقاتها الدلالية، ومنهج المقارنة في بيان التباين والتوافق بين البلاغة وبين التفسير، كما يستفيد البحث من المنهج الوصفي في تتبع البلاغة والتفسير، ومنهج النقد في تقييم مدى نجاح التكامل بين المنهجين، ويحرص البحث على تطبيق هذه المناهج بشكل متكامل، إذ يخدم كل منهج الجانب الذي يتناسب معه، مع الحفاظ على الوحدة الموضوعية للبحث.

المبحث الأول: الشكل النظري للتكامل بين البلاغة العباسية وعلوم التفسير

شهدت البلاغة خلال حكم العباسيين، الذي يُعدّ عصراً ذهبياً للحضارة الإسلامية، تحول رئيسي من كونها أداةً لوصف جماليات اللغة إلى نظام معرفي قائم بذاته، يتفاعل مع الفلسفة والمنطق والعلوم الإسلامية المتنوعة، فقد أدى احتكاك الثقافة العربية بالترجمات اليونانية والفارسية إلى إثراء المنظومة البلاغية بأبعادٍ جديدة، جعلتها تتجاوز حدود البيان التقليدي إلى آفاق التأويل والمقاصد، ولم يكن المتنبي بعيداً عن هذا النسق، بل مثّل ذروة الانزياح الدلالي حين حوّل الصور التقليدية إلى رموزٍ وجودية، ففي قوله:

أَنَا الذُّي نَظَرَ الأَعْمَى إِلىَ أَدَبْي وأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ (ابن العديم، د.ت: 665/2)

نجد الانزياح البلاغي يتجاوز المجاز اللغوي إلى تأسيس رؤيةٍ فلسفيةٍ للذات الشاعرة، وهو ما يلتقي مع التفسير الإشاري للقرآن الذي يعنى بتأويل الآيات وفق قرائن مخفية بخلاف الظاهر منها، (التغلبي، 2015: 108/23) كما بتفسير الآية الكريمة(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَتكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى)[الأنعام، الآية 111]، إذ تحوّل الحروف إلى إشاراتٍ وجوديةٍ لدى الصوفيون، أما فيما يتعلق بالعلوم التفسيرية، فقد تعددت المناهج بتعدد الروافد الثقافية للعصر

العباسي، فظهر التفسير في المأثور (أي ما ورد في القرآن العظيم والسنة النبوية المطهرة، أو ما نُقل عن أصحاب النبي) (الماتريدي ، 2005: 251/1)، الذي تمثّل في "جامع البيان" للعالم المحدث المفسّر محمد بن جرير، للطبري (الذهبي، 1998: 351/2)(ابن كثير، 1997: 145/11)، الذي جمع الروايات مع تحليلٍ لغويٍ دقيقٍ لآياتٍ كقوله تعالى:(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)[طه، الآية 5]، إذ وظّف البلاغة لتأكيد التنزيه دون تشبيه، بينما اتجه المعتزلة إلى التفسير العقلي، ففسّروا قوله تعالى (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)[الفتح، الآية 10]، بالاستعارة المؤكدة لسلطة النصرة الإلهية، متأثرين بمنطق أرسطو في تحليل الدلالة، ولم يكن التفسير الإشاري، كما لدى السلمي (الصيرفيني، 1993: 18)، في "حقائق التفسير"، أقلَ جرأةً، إذ رأى في الآية الكريمة (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِا وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا حَلِيمًا)[الإسراء، الآية 44]، إشارةً إلى وحدة الوجود، وهو ما قاربَهُ الشعراء الصوفيون كالحسين بن منصور الحلاج (التُستري، 1423: 7)، في قوله: "ما في الجبة إلا الله" (ابن خلكان، 1994: 140/12)، مما يظهر التداخل العميق بين البلاغة والتفسير، ولعلّ أوضح تجليات العلاقة بين المجالين كان في المزج بين اللغة القرآنية واللغة الشعرية، إذ استلهم الشعراءُ الرموزَ القرآنيةَ لبناء خطابهم الأدبي، كما في أبيات أبو نواس:

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ العِتَابَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنِي فِي الَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ (أبو نواس، 1423: 7)

في حين استخدم المفسرون أدوات بلاغية لفهم النص القرآني، كالاستعارة في تفسير قوله عز وجل (وَاخْفِضْ لَهُم جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)[الإسراء، الآية 24]، إذ تبدل الجناح المجازي إلى رمزٍ للخضوع، بل إن الانزياح الدلالي في الشعر، كقول بشار بن برد:

كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَسُيُوفُنَا لَيْلٌ تُهَاوِي كَوَاكِبُه (الثعالبي، 1983: 165)

يُعتبر هذا التوظيف نموذجاً تطبيقياً للانزياح الدلالي المشترك بين الشعر والتفسير، حيث يحوّل المتنبي في البيت السابق، المشهد الحربي إلى صورة كونية تتجاوز الوصف المباشر، تماماً كما يحوّل المفسرون اللفظ القرآني (وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ)[الشعراء، الآية 64]، كما يحوّل المفسرون اللفظ القرآني "أَزْلَفْنَا" في الآية الكريمة من معناه الحرفي (القرب المكاني) إلى دلالة مجازية تشمل التقريب الزماني والمصيري، مما يعكس آليات التوسع الدلالي والتأويل المشتركة بين المنظومتين البلاغية والتفسيرية، ويُثبت أن الانزياح في الشعر ليس مجرد زينة لفظية، بل هو أداة معرفية تشارك التفسير في كشف طبقات المعنى الخفية وإعادة تشكيل الواقع عبر الرمز، وقد بلغت العلاقة ذروتها في النظر إلى القرآن كمصدرٍ للإعجاز البياني، إذ حلّل الزجاج، الآية الكريمة (فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ)[البقرة، الآية 266]، تحليلاً بلاغياً يربط بين الصورة والمفهوم (الزّجاج، 1988: 349/1)، بينما استخدم الزمخشري في "الكشاف" الانزياحات الدلالية لتأكيد الاعتزالية بالمجاز(الزمخشري، 1407: 751/4)، كما في تفسيره لقوله تعالى (وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) [الفجر، الآية 22]، وفي المقابل استفاد الأدباء من المناهج التفسيرية، فالشريف الرضي في "نهج البلاغة" وظّف التأويل العقلي في شرح أقوال الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، كقوله: "إنما الدنيا ظلٌ زائل"[الفجر، الآية 22]، الذي يحيل إلى الآية الكريمة (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ) (المجلسي، 1983: 95/7).

وهكذا، مثّل العصر العباسي نموذجاً فريداً للعلاقة بين البلاغة والتفسير، ولم تكن هذه العلاقة بشكل نظري فحسب، بل ظهرت في الممارسة الأدبية، كتوظيف المعري في "رسالة الغفران" لمفاهيم الجنة والنار كفضاءاتٍ سردية

(المعري، 1907: 74)، وبالتالي فكل هذا يؤكد أن الرؤية العباسية للغة والقرآن لم تكن انفصالاً بين الأدب والدين، بل حواراً خلّاقاً بين العقل والروح، وبين المعنى والحرف وبين الباطن الظاهر.

المبحث الثاني: تجليات التكامل المعرفي في شعر المتنبي

لقد بلغ شعر المتنبي درجة متقدمة في التكامل المعرفي بين البلاغة بالشعر وأبعاد التفسير، إذ استطاع أن يحوّل النص القرآني من مجرد مرجعية دينية إلى مادة إبداعية تفيض بالدلالات الجمالية والفلسفية، ففي حديثه عن أهوال القيامة، لا يكتفي الشاعر باستحضار يوم الفزع العظيم الذي تشيب من هوله الولدان (المراغى، 1946: 118/29)، كما في قوله:

والهُمُومُ تَخْتَرِمُ الأَجْسَامَ نَحَافَةً وتُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبيِّ وتُهرَمُ (ابن عباد، 1965: 33)

هنا يتجلى التكامل المعرفي في تحويل المتنبي للمفهوم القرآني الأخروي -وهو هول القيامة- إلى صورة مجازية تعبر عن الهموم الدنيوية، فالفعل "تَخْتَرِمُ" ذو الدلالة القوية على النخر والتآكل، مقترناً بـ "تُشِيبُ" و "تُهرَمُ"، يخلق استعارة مركبة تمنح الهموم قوة فاعلة تفوق قوة الزمن نفسه، ويتقاطع هذا الانزياح البلاغي مع البحث عن المعاني الباطنية في النصوص، فكما يرى المفسرون في آيات أهوال القيامة إشارات إلى أحوال النفس، يأتي المتنبي ليُجسّد هذه الرؤية التأويلية في صياغة شعرية تجعل من الهموم النفسية قوى وجودية قاهرة، فهذا التحويل ليس مجرد محسن بديعي، بل هو تأويل درامي لعذاب القلق الإنساني، مما يكشف عن تشرب الشاعر لمنطق التأويل القرآني وإعادة إنتاجه فنياً،

وقد ظهر هذا التشابك الدلالي بين التشبيه البلاغي وتأويل التفسير، إذ يقوم المتنبي بإعادة تشكيل القصة القرآنية لتتناسب مع رؤيته الشعرية، تماماً كما فعل المفسرون في تأويلهم لقوله تعالى: (فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآَخِرَةِ وَالْأُولَى)[النازعات، الآية 25]، إذ تحولت القصة التاريخية إلى عظة وعبرة، فهذا الانزياح الدلالي ليس مجرد تقنية بلاغية، وإنما هو رؤية فكرية تعكس عمق تأثر المتنبي بالخطاب القرآني وقدرته على إعادة إنتاجه فنياً.

وفيما يتعلق بصور المجاز، ينجح المتنبي بتوظيف الآيات القرآنية لبناء استعارات مدهشة، ومثال ذلك حين قال:

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومٍ فَلَا تقنع بِمَا دُوْنَ النُّجُومِ (العكبري، 1938: 166)

حيث يتجلى التوظيف الإبداعي للآية الكريمة: (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)[الرحمن، الآية 46]، في عملية تحويل دلالي معقدة، فالمتنبي يبني استعارة ترتكز على الفعل "غامَرْتَ" الذي يحمل دلالتي البناء والعمران، مقترناً بـ "شَرَفٍ مَرُومٍ" أي المكان العالي المنشود، ثم يأتي النهي الحاسم "فلا تقنع" – بمعنى لا ترضَ ولا تقنع – بما هو أدنى من النجوم، هذا التحول من "الجنتين" كجزاء أخروي، إلى "النجوم" كرمز للكمال والمطلق الدنيوي، يمثل تأويلاً جريئاً يستند إلى آليات التفسير العقلي الذي يعيد قراءة الوعد الديني في ضوء مقاصده الكلية، ليتحول إلى حافز أخلاقي للتعالي والسمو، وهكذا يلتقي الانزياح البلاغي (التحويل الاستعاري) مع التأويل التفسيري (إعادة فهم النص) في خلق رؤية فلسفية للطموح الإنساني، إذ نلمح صدى واضحاً للآية الكريمة، لكن الشاعر يحوّل الوعد الأخروي إلى حافز دنيوي للعظمة والمجد، مما يكشف عن أساليب تأويل التفسير بشعره، وهذا التبدل الدلالي ليس اعتباطياً، وإنما هو نتاج رؤية فلسفية عميقة تجمع بين الموروث الديني والتطلع الإنساني نحو الكمال، إذ يحوّل المتنبي الذم القرآني للدنيا إلى تبرير فلسفي للطموح الإنساني، وهو ما يعكس جرأة فكرية نادرة في التعامل مع

النص المقدس، ويبرز التكامل المعرفي في شعر المتنبي بشكل خاص في حواره الخفي مع المفاهيم الإسلامية الكبرى، إذ يقدم قراءة مبتكرة للقضايا الدينية، كما في قوله عن العدل الإلهي:

ذُوْ العَقْلِ يَشْقَى بالنَّعِيْمِ بِعَقْلِهِ وَأَخْو الجَّهَالَةِ بالشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ (الثعلبي، 1432: 128)

في هذا البيت، يلتقط المتنبي إحدى الإشكاليات الكلامية العميقة – معضلة العلاقة بين العلم والشقاء، والجهل والطمأنينة – ويصوغها في قالب بلاغي قائم على المقابلة المحكمة بين "ذو العقل" و"أخو الجَهالة"، وبين "يشقى بالنعيم" و"ينعم بالشقاوة"، فتخلق هذه البنية التركيبية المبنية على التضاد مفارقة معنوية مزلزلة، تشبه الجدل الدائر في تفسير آيات القضاء والقدر والعدل الإلهي، فالصياغة الشعرية هنا لا تنقل فكرة مجردة فحسب، بل تحيل القارئ إلى سؤال تأويلي وجودي: أهي نقمة أن نعمة؟ وهل الجهل نعمة؟ فيعكس التجسيد البلاغي لإشكالية تفسيرية/كلامية تكاملاً نادراً، إذ تستخدم أدوات البلاغة (المقابلة، المفارقة) لتجسيد عمق السؤال الديني والفلسفي، مما يجعل البيت نموذجاً لحوار خصب بين المنظومة الجمالية والمنظومة الفكرية في التراث الإسلامي، الذي يلتقي مع الجدل الكلامي حول العدل والجبر، إذ يعيد صياغة الإشكالية التفسيرية القديمة بلغة شعرية محكمة، تشبه ما فعله الزمخشري حين فسّر قوله عز وجل (الزمخشري، 1407: 120/3) (وَنَضَعُ الْقِسْطَ الْمَوَازِينَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا)[الأنبياء، الآية 47]، فهذا الحوار بين الشعر والفكر الديني لا يقف عند حدود القضايا الكبرى، بل يمتد إلى أدق التفاصيل اللغوية، إذ يعيد المتنبي تشكيل العبارة القرآنية لتخدم غرضه الشعري، ويبلغ التكامل بين الشعر والتفسير ذروته عندما يتجاوز المتنبي المعاني الظاهرية إلى التأويلات الباطنية، كما في قوله الشهير:

أَنَا الذُّي نَظَرَ الأَعْمَى إِلىَ أَدَبْي وأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ (البتلوني، 1886: 75)

يكشف تحليل البيت عن تركيب معجز يجمع بين المستحيلين الحسيين: إعطاء البصر للأعمى، والسمع للأصم، وهذا ليس مجرد مبالغة بلاغية (إطراف)، بل هو تأسيس لرمزية كاملة: فـ "الأعمى" و"الأصم" هما رمزان للجاهل أو المعرض عن الحقيقة، و "الأدب" و"الكلمات" هما رمز الحكمة والنور المعرفي، فيلتقي الانزياح البلاغي المتمثل في خرق قانون الطبيعة المجازي تماماً مع منهج التفسير الإشاري الصوفي، الذي يعتبر النبوة والهداية نوعاً من "بصيرة القلب" و"سماع الروح"، تماماً كما في التأويل الباطن للآية: (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) [النمل، الآية 80]، فلا يعلن البيت التفوق الأدبي فحسب، بل يعلن مقاماً تأويلياً يقارب مقام الإلهام في إضاءة الظلمات وإسماع الصم البصري والسمعي عن الحقيقة، مما يجسد ذروة التكامل بين الرمزية الشعرية المفرطة والتأويل الباطن للنص الديني، إذ لا نجد مجرد استعارة بلاغية، وإنما تأويلاً وجودياً لفكرة النبوة والهداية، يشبه إلى حد كبير التفسير الإشاري للآية، وهذا الانزياح الدلالي العميق يعكس تأثر المتنبي بالصوفيين والفلسفة التي كانت سادت بعصره، والتي مالت للبحث عن المعاني الباطنية للنصوص، كما نجد في قوله:

الخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالرُّمْحُ وَالسَّيْفُ وَالقِرْطَاسُ وَالقَلَمُ (الأزدي، 1981: 75)

فيخلق المتنبي في هذا البيت الجامع، عالماً رمزياً متكاملاً من خلال نسق العطف الذي يجمع بين العناصر المتباينة في انسيابية واحدة، فـ "الخيل والليل والبيداء" تمثل فضاء المعركة والترحال والاختبار الوجودي في الفضاء المفتوح، بينما "القرطاس والقلم" ينقلاننا إلى فضاء الفكر والتأمل والإبداع، فهذا الجمع في تركيب واحد هو بيان وجودي عن شخصية الشاعر الذي يجسد التكامل بين قوة الفعل وقوة الفكر، ويشبه إلى حد بعيد عملية التأويل المجازي التي مارسها المفسرون والصوفية على آية الاستعداد (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)، إذ تم تحويل "القوة" من مدلولها العسكري المادي إلى مدلولها الروحي والمعرفي، فالمتنبي هنا، من خلال نسقه البلاغي البديع

(السَّجْع المُتَوازِن والتعداد المتناغم)، يؤوّل حياته وشخصيته كمجال للتكامل بين البطولة الجسدية والبطولة الفكرية، مما يجعل البيت نموذجاً حياً لتحويل التراث البلاغي وتراث التفسير المجازي إلى رؤية شعرية وفلسفية واحدة متماسكة، تبديلاً للرموز الحربية التقليدية إلى دلالات وجودية، تشبه ما فعله المتصوفة في تأويلهم لقوله عزوجل: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَااسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍوَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّاللَّهِ عَدُوَّكُمْ)[الأنفال، الآية 60]، إذ حوّلوا مفهوم القوة من معناه المادي إلى قوة الروح والمعرفة، وبالتالي يصبح شعر المتنبي ساحة حوار خلاق بين البلاغة والتفسير، فتذوب في بوتقة الإبداع الفريد الذي جعل من المتنبي ظاهرة فريدة في تاريخ الأدب العربي، فشعره ليس مجرد كلمات موزونة، وإنما هو رؤية كونية تجمع بين الفن والفكر، بين الجمال والحقيقة، بين الظاهر والباطن، إذ يظل نصّه الشعري مفتوحاً على تأويلات لا تنتهي، تماماً كما هو حال النص القرآني الذي استلهم منه وأعاد إنتاجه ببراعة فائقة.

المبحث الثالث: المقارنة بين المنهج البلاغي والمنهج التفسيري في تحليل شعر المتنبي

يتجسد التكامل والتباين في دراسة شعر المتنبي بين المنهج البلاغي والمنهج التفسيري بشكل بالغ الدقة والثراء، إذ يلتقيان في المنطلقات ويختلفان في الغايات، في حوار معرفي ثري يكشف عن عمق النص الشعري وغنى الدلالات التي يطرحها، فالمنهجان معاً ينطلقان من اللغة بوصفها نظاماً دلالياً، فحين يحلل البلاغي ما قاله المتنبي:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأْتِي العَزَائِمُ وتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الإِكْرَامِ المَكَارِمُ (ابن عباد، 1965: 49)

فإنه يبحث في الانزياح الدلالي بين لفظي "العزم" و"العزائم" وعلاقتهما التركيبية، تماماً كما يحلل المفسر قوله تعالى: (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)[المائدة، الآية 23]، بحثاً عن العلاقة بين التوكل والإيمان، وبينما يقف البلاغي عند جماليات التركيب وإبداعيات الصورة، يتجاوز المفسر إلى المقاصد التشريعية والأبعاد العقدية، وهذا الفارق الجوهري هو ما يخلق تمايزاً في الرؤية رغم التقاء المنطلق، ويتجلى الاختلاف بين المنهجين في معالجة قضية التأويل، فحين يتناول البلاغي أبيات المتنبي:

وَإِذَا كَانَتْ النُّفُوسُ عِظَامَاً هَلَكَتْ فِي مُرَادِهَا الأَجْسَامُ (الثعلبي، 1432: 124)

فإنه يبحث عن جماليات الطباق بين النفوس والأجسام، ودقة اختيار لفظ "عِظَامَاً" الذي يحمل دلالات العظمة والسمو، بينما يحاكم المفسر مثل هذه العبارة إلى ضوابط الشرع، ومثال ذلك حين فسّر قوله عز وجل: (وَلَقَدْكَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّوَالْبَحْرِ)[الإسراء، الآية 70]، إذ يبحث عن حدود هذا التكريم في إطار العقيدة الإسلامية، ويظهر الفرق واضحاً بمساحات خيارات التأويل، فالبلاغي قد يتجاوز بالمعنى إلى آفاق واسعة، بينما يحذر المفسر من مثل هذا التوسع في تأويل النص القرآني، كما في تفسير آية: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِكُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَايُؤْمِنُونَ)[الأنبياء، الآية 30] إذ يلتزمون بالمعنى الظاهر إلا بدليل، لكن هذه الفروق لا تتعارض مع مقدرة التكامل بين منهج البلاغة والتفسير، فالدقة المُميزة بالتفسير يمكن أن تفيد البلاغة في ضبط وتقييد طريقة التأويل، كما أن المرونة البلاغية يمكن أن تثري الفهم التفسيري، فتحليل أبيات المتنبي:

لَايَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيْعُ مَنَ الأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى أَطْرَافِهِ الدَّمُ (الجرجانى، 1431: 150)

يمكن الاستفادة من مناهج التفسير بتحليلهم للآية الكريمة: (وَلَنَبْلُوَنَّهَمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِالصَّابِرِينَ)[البقرة، الآية 155]، إذ يتم الجمع بين التحليل اللغوي والقصدي، كما أن دراسة أبيات المتبني:

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنّاهُ المَرْءُ يُدْرِكُهُ تَجْرِي الرِّيَاحُ بِمَا لاَتَشْتَهِي السُّفُنُ (القزويني، 1431: 77)

يمكن أن تستفيد من منهجية المفسرين في دراسة آية: (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَخَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّلَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ)[البقرة، الآية 216]، إذ الجمع بين الظاهر والباطن، والتكامل الأمثل بين المنهجين يقتضي مراعاة عدة ضوابط، أهمها الحفاظ على الخصوصيات التي يتميز بها كل منهج، فلا يُطلَب من البلاغي أن يصبح مفسراً، ولا من المفسر أن يتحول إلى ناقد أدبي، بل المطلوب هو الاستفادة المتبادلة مع الاحتفاظ بالهوية المعرفية لكل منهج، كما ينبغي أن يكون التكامل وظيفياً يخدم فهم النص ولا يطغى عليه، كما فعل الزمخشري في "الكشاف" إذ استعان بالبلاغة في خدمة التفسير دون أن تطغى عليه، وهذا النموذج من التكامل يمكن تطبيقه على شعر المتنبي، إذ يظهر في قوله:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيْمَ مَلَكْتَهُ وَإِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا (الثعالبي، 1981: 111)

مادة وفيرة للتحليل البلاغي من جماليات المقابلة والطباق، وللتحليل التفسيري من حيث انسجامه مع القيم الإسلامية في قوله تعالى: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)[الرحمن، الآية 60].

وبالتالي يبقى شعر المتنبي بحراً زاخراً بالدلالات التي تنتظر من يغوص في أعماقها بآليات منهجية شاملة، جامعة لدقة التحليل التفسيري ومرونة الرؤية البلاغية، في انموذجاً فريد للتكامل المعرفي الذي يحترم الخصوصيات ولا يغفل عن التفاعلات، وهو ما يجعل دراسة هذا الشاعر الكبير مجالاً خصباً لتجديد المناهج وتطوير طرق التحري والتحليل في الدراسة التراثية العربية الإسلامية.

الخاتمة:

في نهاية هذا البحث حول التكامل المعرفي بين البلاغة العباسيةوعلوم التفسير: دراسة تطبيقية في شعر المتنبي، فقد تمكنت الدراسة من التوصل إلى نتائج متعددة كان من أبرزها:

- توصلت الدراسة إلى أن شعر المتنبي يمثل نموذجًا واضحًا للتكامل المعرفي بين البلاغة العباسية وعلوم التفسير، إذ ظهر تأثره الواضح بالمنظومة القرآنية في تشكيل الصور الفنية وصياغة المضامين.
- اتضح عبر التحليل أن المتنبي استلهم عدداً من طرائق التفاسير، كالتأويل والمجاز المركب، الأمر الذي أضفى على شعره عمقاً دلاليّاً يتجاوز المعنى الظاهري.
- كشفت الدراسة عن تشابكٍ واضحٍ بين منهج البلاغة لدى المتنبي ورؤيته للتفسير، خاصة في توظيف الرموز التاريخية والدينية، مما يدل على تأثره بالثقافة الإسلامية السائدة في العصر العباسي.
- أظهر البحث أن التكامل بين البلاغة وعلوم التفسير يُعد مدخلاً فعّالاً لمنهج تحليل النصوص الأدبية، إذ يساعد على اكتشاف طبقات دلالية جديدة لم تُدرس بشكلٍ كافٍ في الدراسات السابقة.
- بيّنت الدراسة أن المتنبي لم يكن شاعراً بلاغيّاً فحسب، بل كان مُفكِّراً يستند إلى رؤية تأويلية مستمدة من التفاعل مع الخطاب القرآني والتراث التفسيري.
- أكدت الدراسة أن التكامل المعرفي يبرز الأبعاد الفلسفية والعقدية في شعر المتنبي، مما يجعله نصّاً غنيّاً يستحق إعادة القراءة ضمن هذا الإطار.

- خلصت الدراسة إلى أن المنهج التكاملي بين الأدب وعلوم التفسير يفتح آفاقاً جديدةً للبحث الأكاديمي، ويسهم في تقديم قراءاتٍ أكثر شمولاً للنصوص التراثية.

التوصيات:

- ضرورة اعتماد المنهج التكاملي بين البلاغة والعلوم التفسيرية في دراسة النصوص التراثية الأدبية، نتيجة لتوفيره القدرة على كشف الطبقات الدلالية العميقة.
- إعادة القراءة التراثية البلاغية العربية في ظل تعدد وتنوع مناهج التفسير (المأثور، العقلي، الإشاري)، إذ أظهر البحث كيف يمكن لهذه القراءة أن تثري فهم الانزياحات الدلالية والصور الفنية في النصوص الأدبية، خاصة عند شعراء كالمتنبي الذي استفاد من هذه المناهج في تشكيل رؤيته الشعرية.
- الاهتمام بدراسة التأثير المتبادل بين الأدباء والمفسرين في ظل الحكومة العباسية، إذ كشفت الدراسة عن حوار خلاق بين الطرفين، تجلى في استفادة المفسرين من الأدوات البلاغية (كالاستعارة والمجاز) وفي الوقت نفسه استفادة الأدباء من المناهج التأويلية للتفسير.
- تطوير المناهج الأكاديمية لتدريس البلاغة العربية القديمة، بحيث لا تكون مقتصرة على الجوانب الجمالية وإنما تتعداها لدراسة الأبعاد الفلسفية والعقدية في النصوص الأدبية، انطلاقاً من النموذج الذي قدمه المتنبي في تكامله المعرفي بين البلاغة والتفسير.
- تشجيع الدراسات التي تتناول العلاقة بين الأدب الإسلامي والخطاب القرآني، إذ أظهر البحث كيف يمكن لهذه الدراسات أن تكشف عن آليات إبداعية جديدة في توظيف النص المقدس في الإنتاج الأدبي، كما في حالة المتنبي الذي حول الآيات القرآنية إلى مادة إبداعية غنية بالدلالات.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1. ابن خلكان، أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأبناء أنباء الزمان، مؤسسة صادر، لبنان، الطبعة السابعة، 1994م.
2. أبو نواس، الحسن بن هانئ، ديوان أبو نواس، دار صادر، بيروت.
3. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البدايةوالنهاية، دار هجر، مصر، الطبعة الأولى، 1997.
4. الأزدي، الحسن بن رشيق القيروانى، العدة بمحاسن الشعر وآدابه، ج1، تح: محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة الجيل، الطبعة الخامسة، ١٩٨١م.
5. البتلوني، شاكر بن معامس، نفخ الأزهار في منتحبات الأشعار، تحقيق: إبراهيم اليازجي، المكتبة الأدبية، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٨٨٦م.
6. التُستري، سهل بن عبدالله، تفسير التستري، تحقيق: محمد عيون السود، دار الكتب العملية، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ
7. الثعالبي، عبدالملك بن محمد، يتيمية الدهر بمحاسن أهل العصر، تح: مفيد قمحية، دار الكتب العملية، بيروت، الطبعة الأولى، 1983.

8. الثعلبي، عبدالملك بن محمد، أبوالطيب المتنبي ماله وماعليه، تح: محمد محي الدين عبدالمجيد، دار الحسن التجارية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1432ه.
9. الثعالبي، عبدالملك بن محمد، المحاضرة والتمثيل، تح: عبدالفتاح محمدالحلو، دار الكتاب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1981م.
10. التغلبي، أحمد بن محمد، الكاشف والبيان لتفسير القرآن، دار التفسير،الرياض، الطبعة الأولى، 2015م.
11. الجاحظ، عمرو بن بحر، الرسائل الأدبية، مكتبة الهلال، لبنان، الطلعة التانية، 1423ه.
12. الجرجانى، على بن عبدالعزير القاضي، الواسطة بين المتنبى وخصومه، تح: محمد أبوالفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاؤه، القاهرة، الطبعة الأولى، 1431ه.
13. الخطيب، أحمد بن علي البغدادي، تاريخ بغداد، دارالغرب الإسلامي، لبنان، الطبعة الأولى، 2002م.
14. الذهبى، محمد بن أحمد، تذكرة الحفاظ، دار الكتاب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1998م.
15. الزّجاج، إبراهيم بن السّرى، معاني القرآن وإعرابه، تح: عبدالجليل عبدو شلبي، عالم الكتب، لبنان، الطيعة الأولى، 1988م.
16. الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف بحقائق التتزيل وعيون الأقاويل في أوجه التأويل، مؤسسة إحياء التراث، لبنان، الطبعة الأولى، 1407.
17. ابن عباد، الصاحب إسماعيل بن العباس الطالقاني، الأمثال السائرة بشعر المتنبي، تح: محمد آل ياسين، دار النهضة، العراق، الطيعة الأولى، 1965.
18. الصيرفيني، تقي الدين إبراهيم بن محمد، المنتخب في كتاب السياق في تاريخ نيسابور لعبد الغفار الفارسي، مؤسسة الفكر، لبنان، الطبعة الأولى، 1993م.
19. العكبري، أبي البقاء، ديوان أبي الطيب المتبني، تح: مصطفى السقا، مطبعة مصطفى البابى وشركاؤه، القاهرة، الطبعة الأولى، 1938.
20. القزويني، محمد بن عبدالرحمن، الإيضاح بعلوم البلاغة، تح: محمد الخفاجي، دار الجيل، لبنان، الطيعة الثالثة، 1431ه.
21. الماتريدي، محمد بن محمد، تفسير الماتريدي، تحقيق: مجدي سلوم، دار الكتب العملية، لبنان، ٢٠٠٥م.
22. المجلسى، محمد باقر، بحار الأدوار الجامعة لدر أخبار الأئمة الأطهار، دار الوفاء، لبنان، الطبعة الثانية، 1983.
23. المراغى، أحمد بن مصطفى، تفسير المراغى، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1946.
24. ابن العديم، عمر بن أحمد بن أبي جرادة، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ط، د.ت.
25. المعري، أحمد بن عبدالله، رسالة الغفران، مطابع أمين هندية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1907م.

المستخلص باللغة الإنكليزية

The Abbasid era witnessed a radical transformation in the relationship between rhetoric and the sciences of interpretation. Rhetoric evolved from studying the aesthetics of wording to analyzing semantic and intentional structures, influenced by the translation movement and engagement with Greek philosophy. Conversely, interpretive methodologies expanded to include traditional, rational, and allusive approaches, fostering a rich dialogue between the two systems. This study aims to uncover the foundations of the cognitive integration between Abbasid rhetoric and interpretive sciences, analyze the manifestations of this integration in Al-Mutanabbi's poetry as a creative model, illustrate the points of convergence and divergence between the rhetorical and interpretive methodologies, and highlight the aesthetic and philosophical dimensions in Al-Mutanabbi's employment of Qur'anic concepts. The research adopted a historical approach to trace the evolution of the relationship between rhetoric and interpretation, an analytical approach to study Al-Mutanabbi's verses, a comparative approach to identify points of agreement and difference between the two methodologies, along with descriptive and critical approaches. The study revealed that Al-Mutanabbi's poetry represents a clear model of cognitive integration, as he drew upon interpretive methods such as ta'wil (hermeneutics) and majaz (metaphor), which added semantic depth to his work. The research also demonstrated an intertwining between the rhetorical method and the interpretive perspective in utilizing religious and historical symbols, and affirmed that this integration serves as an effective approach for discovering new semantic layers in literary texts.

Keywords: Cognitive integration، Abbasid rhetoric، exegetical sciences، al-Mutanabbi، metaphor and interpretation.